

الجمعية التعاونية للبتروك

الرسول الأعظم في آيات التكريم

المحاضرة التي ألقاها بدار الجمعية

الأستاذ

حسن كامل المطاوى

وكيل وزارة الخزانة السابق

في يوم الثلاثاء ١٤ من ربيع الآخر ١٣٩٩ ١٣٥ من مارس ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم
الرسول الأعظم
فى آيات التكريم

أيها المستمعون الكرام :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو على أن هدانا
للسلام وجعلنا من أمة خير الأنام . وأصلى وأسلم على رسولنا الأعظم سيدنا ومولانا محمد
الذى أخرجنا الله على يديه من الظلمات إلى النور وعلى إخوانه من سادتنا النبيين والمرسلين
. وأسترضى الله عن سلفنا الصالح من سادتنا آل البيت المطهرين والصحابة المتقين والتابعين
المحسنين وتابعى التابعين ومن والاهم بإحسان إلى يوم الدين ؛ كما أسترضيه تعالى عن
شيوخنا الأجلاء أجمعين .

ثم أتقدم بشكرى خالصاً للأخ الحبيب الأستاذ أحمد غنيم عضو مجلس إدارة جمعيتكم الموقرة
حيث دعانى لإلقاء هذه المحاضرة إحياء لذكرى المولد النبوى الشريف . وأشكر كذلك مجلس
الإدارة الذى يعتنى بتلك الذكرى المجيدة التى تحيا بها قلوب أهل الإيمان ، وتجتاز ببركتها
الأرواح عالم الملك الفانى إلى عالم الملكوت الباقي ، فتأنس بالله تعالى أنس الملائكة الأطهار
الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

أما بعد :

فإن كتاب الله الكريم ملئ بآيات التكريم التي تبرز لنا فضل الله العظيم الذي غمر به سبحانه خاتم أنبيائه وكبير رسله سيدنا ومولانا محمد الذي نحتفل بذكرى ميلاده المجيد ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين . وإليكم على سبيل المثال لا الحصر بعض تلك الآيات البينات .

تعليمه صلى الله عليه وسلم :

نشأ صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب بين قوم أميين كذلك ، لكن شاء الله أن يكون منبع العلم الغزير المتدفق للقارئ والكاتب على مر القرون جيلاً بعد جيل . ولا عجب فقد أغناه المسبب سبحانه عن الأسباب وعلمه وحياً ما لم يكن يعلم . وكانت أولى الآيات القرآنية التي جاء بها من عند الله تعالى ملك الوحي جبريل عليه السلام قوله سبحانه في سورة العلق (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم) .

وقد جاء في حاشية الإمام الجمل . رضى الله عنه :

ذكر السيوطي . رضى الله عنه . فى إتقانه أن أول سورة اقرأ مشتمل على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة الاستهلال لكونها أول ما أنزل من القرآن . فإن فيها الأمر بالقراءة ، وفيها البداءة باسم الله ، وفيها الإشارة إلى علم الأحكام ، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب ، وإثبات ذاته وصفاته ، من صفة ذات وصفة فعل ، وفى هذه الإشارة

إلى أصول الدين ، وفيها مايتعلق بالأخبار من قوله ((علم الإنسان ما لم يعلم)) . ولهذا قيل إنها جديرة بأن تسمى " عنوان القرآن " لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة فى أوله .

ويقول الإمام القشيري فى لطائف إشارته رضى الله عنه :

(اقرأ بسم ربك الذى خلق) هذه السورة من أول ما نزل على المصطفى صلى الله عليه وسلم لما تعرض له جبريل فى الهواء ونزل عليه فقال (اقرأ باسم ربك الذى خلق) فالناس كلهم يريدون ، وهو صلى الله عليه وسلم كان مرادا . فاستقبل الأمر بقوله (ما أنا بقارئ) فقال له : (اقرأ) فقال (ما أنا بقارئ) فقال له : اقرأ كما اقول لك ((اقرأ باسم ربك الذى خلق) أى خلقهم على ما هم به .

(خلق الإنسان من علق) العلق جمع علقة ، كشجرة وشجرة ، والعلقة الدم الجامد ، فإذا جرى فهو المسفوح .

(اقرأ وربك الأكرم) أى الكريم ، ويقال : الأكرم من كل كريم .

(الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم) علمهم ما لم يعلموا ، الضرورى والكسبى .

ويقول الإمام أبو السعود فى تفسيره رضى الله عنه :

قوله عليه الصلاة والسلام : (ما أنا بقارئ) يريد به أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وأنا أمى ، فقيل له : وربك الذى أمرك بالقراءة

مبتدئاً باسمه هو الأكرم (الذى علم بالقلم) أى علم ما علم بواسطة القلم لا غيره ، فكما علم القارئ بواسطة الكتابة والقلم يعلمك بدونهما .

(علم الإنسان ما لم يعلم) بدل اشتمال من (علم بالقلم) أى علمه به وبدونه من الأمور الكلية والجزئية والجلية والخفية ما لم يخطر بباله . وفى حذف المفعول أولاً وإيراده بعنوان عدم المعلوماتية ثانياً من الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمال كرمه والإشعار بأنه تعالى يعلمه من العلوم ، مما لا تحيط به العقول ما لا يخفى .

وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه :

(اقرأ باسم ربك) أى اقرأ القرآن مفتتحاً باسمه سبحانه وتعالى أو مستعينا به (الذى خلق) أى الذى له الخلق ، أو الذى خلق كل شيء ، ثم أفرد ما هو أشرف وأظهر صنعا وتدبيراً ، وأدل على وجوب العبادة المقصودة من القراءة فقال (خلق الإنسان) والذى خلق الإنسان ، فأبهم أولاً ، ثم فسر ، تفخيماً لخلقه ودلالة على عجيب فطرته (من علق) . ولما كان أول الوجبات معرفة الله سبحانه وتعالى ، أنزل أولاً ما يدل على وجوده وفرط قدرته وكمال حكمته (اقرأ) تكرير للمبالغة ، ولعله لما قيل له (اقرأ باسم ربك) فقال (ما أنا بقارئ) فقيل له (اقرأ وربك الأكرم) الزائد فى الكرم على كريم . فإنه سبحانه وتعالى ينعم بلا عوض ، ويحلم من غير تخويف ؛ بل هو الكريم وحده على الحقيقة (الذى علم بالقلم) أى الخط بالقلم . وقد قرئ به لتقيد به العلوم ويعلم به العبيد (علم الإنسان ما لم يعلم) بخلق القوى ونصب الدلائل ، وإنزال الآيات ، فيعلمك القراءة وإن لم تكن قارئاً .

أقول : والأسباب خلقها الله بقدرته لتؤتى ثمرتها بإذنه سبحانه ، ويتقيد بها المخلوق ولكنها لا تقيد الخالق إذا شاء سبحانه أن يغنى مخلوقه عنها . وقد أراد الله تعالى أن يعلم رسوله الأسمى دون كتابة أو قراءة أو معلم من البشر . فعلمه عطاء ما لم يكن يعلم ، وجعل علمه مورد للمعلمين والمتعلمين على مر الأيام والسنين . وجعل ذلك منة على المؤمنين ، فقال تعالى فى سورة آل عمران (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) . وقال تعالى فى سورة الجمعة ممتنا بالرسالة المحمدية (يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم * هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمه الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

ومما جاء فى لطائف الإشارات عند تلك الآية الأخيرة قول سيدى الإمام القشيري رضى الله عنه : جرده عن كل تكلف لتعلم . . . ، ثم بعثه فيهم وأظهر عليه من الأوصاف ما فاق الجميع ، فكما أئتمه فى الابتداء عن أبيه وأمه ، ثم آواه بلطفه ، وكان ذلك أبلغ وأتم ، فإنه كذلك أفرده عن تكلفه العلم ولكن قال (وعلمك ما لم تكن تعلم) .

وقال (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه

نورا) ألبسه لباس العزة ، وتوجه بتاج الكرامة ، وخلع عليه حسن التولى ، لتكون أنوار الحقائق عليه لائحة .

(وآخرين منهم . . .) أى بعثه فى الأميين ، وفى آخرين منهم وهم العجم ومن يأتى إلى يوم القيامة ، فهو صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الناس كافة .
(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) يقصد هنا به النبوة يؤتيها من يشاء .

أقول ومن ذلك نعلم أن الرسالة المحمدية رسالة عامة للأولين والآخرين وللعرب والعجم إلى يوم القيامة ، وتلك خصوصية لم تقع لغيره من الرسل الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم السلام . ويؤيد سبحانه عمومية الرسالة المحمدية كذلك بقوله تعالى فى سورة سبأ (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) قال الإمام الزمخشري رضى الله عنه : إلا رسالة عامة لهم محيططة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم . وجاء فى حاشية الإمام الجمل رضى الله عنه : (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى أن أهل مكة لا يعلمون ذلك المذكور فى الآية من عموم رسالتك وكونك بشيرا وكونك نذيراً .
أقول وهو صلى الله عليه وسلم بشير للمؤمنين بالجنة ونذير للكافرين بالعذاب .

قدرة الله على نقض العادة :

والقرآن الكريم قص علينا فى قصص عديدة ما دلنا به على قدرته سبحانه فى نقض العادة والاستغناء عن الأسباب ؛ ولم يكن ذلك النقض مع سادتنا المرسلين فحسب بل كان كذلك مع الأولياء والصديقين . فقد كان سيدنا زكريا عليه السلام كفيلا لسيدتنا مريم عليها السلام ،

ولكنه كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا . فسألها كما حكا سبحانه فى سورة آل عمران عن مصدر ذلك الرزق فقالت : (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) . وكلمة (كلما) تفيد التكرار ، فما دخل عليها سيدنا زكريا . عليه السلام . إلا وجد عندها رزقا فى كل مرة .

وقد وهب الله الولد على كبر ومع عقم الزوجة لسيدنا زكريا عليه السلام . فقد دعى ربه فى يقين قوى وثقة تامة بالله تعالى أن يهبه ولدا يرثه فى دعوة الناس إلى الله . فاستجاب الله دعوته وخرق له الأسباب ، ولنقرأ فى ذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران بعد قصة الرزق الذى كان يؤتيه تعالى لسيدتنا مريم عليها السلام (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين * قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك يفعل الله ما يشاء * قال رب أجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار) . ولو لم يكن يقينه قويا فى قدرة الله على خرق الأسباب ما دعا ربه هذا الدعاء مع كبر سنه وعقم زوجته . أما قوله عليه السلام (أنى يكون لى ولد وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر) فليس فيه استبعاد لقبول دعائه . لكنه استفهام عن كيفية وقوع تلك المعجزة ، أى هل يولد لنا ونحن على حالنا من الكبر والعقم ، أو تردنا إلى الشباب أو ترزقنى ولدا من امرأة أخرى غير امرأتى العاقر . فأجابه سبحانه بقوله الكريم

(كذلك) أى مع كونكما على حالكما ثم أعقب ذلك بقوله تعالى (الله يفعل ما يشاء) أى لا يعجزه شئ يريد به جل شأنه وتعالت قدرته .

ومما تقدم نرى أن الله تعالى نقض العادة فى استجابته لدعوة سيدنا زكريا بخرق الأسباب ، وزاده سعادة فسمى له المولود وفى ذلك تشرىف فوق تشرىف . ولنقرأ فى ذلك قوله تعالى فى سورة مريم (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) ثم زاده فضلا على فضل فأنبأه بالصفات والهبات السامية التى حبا الله بها ذلك المولود الموهوب كما جاءت فى قوله (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) .

ومعنى (مصدقا بكلمة من الله) أى مصدقا بسيدنا عيسى عليه السلام بدليل قوله تعالى فى سورة آل عمران (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين) وقوله تعالى (بكلمة منه) أى خلقه سبحانه بغير أب نقضا للعادة ؛ فكأنه سبحانه قال كن فكان . وهى كناية عن سرعة الإيجاد عند تعلق الإرادة الإلهية ، وليس هناك أمر ولا كاف ولا نون .

ويقول العلماء إن قوله تعالى فى سورة النحل (إنما قولنا لشيئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) لا يعقل أن يكون هناك أمر لأن خطاب المعدوم لا يعقل وإن كان بعد وجوده ففيه تحصيل الحاصل . وإنما جاء التعبير كناية عن سرعة إيجاد ما أراد الله أن يكون ، وهو سبحانه فعال لما يريد .

ومعنى (وسيدا) أى متبوعا فى العلم والعبادة والورع ، ومعنى

(حصورا) أى ممنوعا من النساء إما لطبعه على مغالبة أو لمغالبة نفسه . ومعنى ((ونبيا من الصالحين) أى ناشئا منهم ، وفى ذلك تحقيق لرغبة سيدنا زكريا التى يحكيها قوله تعالى فى مطلع سورة مريم (كهيعص * نكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادا ربه نداء خفيا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا * وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) ومعنى (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أى أنك لم تخيبنى فى دعواتى السابقة بل أحببتنى فيها فاستجب كذلك دعوتى هذه . والمراد بقوله عليه السلام (يرثنى) أى فى الشرع والعلم والدعوة إلى الله من بعدى ، أما قوله عليه السلام (وإنى خفت الموالى من ورائى) فيكشف عن عدم استعداد بنى عمه لخلافته فى الدعوة من بعده ، وهو يحرص على أن يديم الله عليهم شرف الدعوة إلى الله فلا يحرم آل يعقوب من ذلك الشرف . وبين لنا ذلك من قوله عليه السلام (يرثنى ويرث من آل يعقوب) أى يرث دعوة الخلق إلى الحق ، فيدوم فى آل يعقوب شرف النبوة والدعوة إلى الله تعالى .

نعمة القرآن الكريم :

ويقول الله تعالى فى سورة الحجر منوها بنعمة القرآن التى خص بها رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) وجاء فى تفسير الجلالين وحاشية الإمام الجمل رضى الله عنهم : وفى تفسير السبع مثانى قال صلى الله عليه وسلم هى الفاتحة كما رواه

البخارى ومسلم ، وسميت مثنى لأنها تثنى . أى تكرر . فى كل ركعة . وفى قول آخر لأنها مقسومة بين العبيد وبين الله ، فالنصف الأول ثناء على الله والنصف الثانى دعاء . وقيل سميت مثنى لأن كلماتها مثناه مثل قوله (الرحمن الرحيم) وقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) وقوله (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم) فكل هذه الألفاظ مثناة . وقيل لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة . وقيل لاشتغالها على الثناء على الله وهو حمده وتوحيده وملكه . وهذا كله على القول بأن السبع مثنى هى الفاتحة .

وقيل المراد بها السبع الطوال أولها البقرة وآخرها مجموع الأنفال وبراءة ، فهم كالسورة الواحدة ولهذا لم يفصل بينهما ببسمة ، وسميت هذه السبع مثنى أن القصص والأحكام والحدود ثنيت فيها ، وقيل المراد بالسبع المثنى الحواميم . وقيل المراد بها جميع القرآن . ودليل هذا القول الأخير قوله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثنى . .) وعلى ذلك يكون عطف القرآن على السبع من قبيل عطف الصفات مع وحدة ذات الموصوف . والمعنى ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثنى والقرآن العظيم أى الجامع لهذين الوصفين .

القرآن هو المعجزة الخالدة :

وكما كرم الله تعالى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنزال القرآن عليه ، كرمه كذلك بحفظه على مر القرون من التغيير والتحريف والتبديل ، فقال تعالى فى سورة الحجر (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له

لحافظون) . وبهذا الحفظ ظلت معجزة القرآن الكريم معجزة خالدة ومؤيدة لصدق الرسالة المحمدية ، ففاقت بهذا الخلود سائر المعجزات . ويقول فى ذلك سيدى الإمام البوصيرى فى بردته رضى الله عنه :

دامت لدنيا ففاقت كل معجزة	من النبيين إذ جاءت ولم تدم
ما حوربت قط إلا عاد من حرب	أعدى الأعدى إليها ملقى السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها	رد الغيور يد الجانى عن الحرام

السنة مفسرة لأحكام القرآن المجمل :

وقد بين الله فى كتابه الكريم معالم الإسلام وأحكام العبادات والمعاملات من صلاة وصيام وزكاة وحج وحلال وحرام . وعهد سبحانه لمولانا رسول الله صلى عليه وسلم أن يفصل ما أجمله القرآن من أحكام ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة النحل (وأنزلنا إليك الكتاب لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلمهم يتفكرون) .

وقد جاء فى حاشية الإمام الجمل رضى الله عنه عند هذا القول الكريم : يعنى أنزلنا عليك يا محمد الذكر الذى هو القرآن . وإنما سماه ذكراً لأن فيه مواظ وتنبها للغافلين (لتبين للناس ما نزل إليهم) يعنى ما أجمل إليك من أحكام القرآن ، وبيان الكتاب يطلب من السنة ، والمبين لذلك المجمل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولهذا قال بعضهم متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لأن القرآن مجمل والحديث مبين بدلالة هذه الآية ، والمبين مقدم على المجمل .

وقد قال تعالى فى سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا

الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً .

ومما جاء فى حاشية الإمام الجمل رضى الله عنه : وفى الآية إشارة لأدلة الفقه الأربعة .
فقوله تعالى (أطيعوا الله) إشارة للكتاب ، وقوله تعالى (وأطيعوا الرسول) إشارة إلى السنة
وقوله تعالى (وأولى الأمر منكم) إشارة للإجماع ، وقوله تعالى (فإن تنازعتم فى شىء . . .)
(إشارة للقياس .

أقول : ومن أروع ما قرأته للعلماء فى التعقيب على تلك الآية الكريمة قولهم : كرر الله سبحانه فعل (أطيعوا) فى قوله تعالى (أطيعوا الله) وفى قوله تعالى (وأطيعوا الرسول) ولم يتكرر بالنسبة لأولى الأمر ، والحكمة فى ذلك أن تكون للرسول صلى الله عليه وسلم طاعة مستقلة إذا أمرنا صلى الله عليه وسلم بأمر لم يرد فى القرآن الكريم . وضربوا لذلك مثلاً أنه صلى الله عليه وسلم حرم أن يجمع المؤمن بين المرأة وعمتها أو خالتها ولم يرد هذا الحكم فى آية المحرمات فى كتاب الله ، فيجب على المؤمن طاعته فى ذلك التحريم . أما عطف (أولى الأمر) بدون تكرار أطيعوا فإنه يدل على أن طاعتهم تكون واجبة فيما يتفق مع الكتاب والسنة ، فإن خالفت أوامرهم الكتاب والسنة فلا طاعة لهم فى تلك المخالفة .

ويقول العلماء أن رد الأمر إلى الله فى الآية معناه الرد إلى كتاب الله الكريم ، والرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كان إلى شخصه الكريم فى حياته الشريفة ، ويكون إلى سنته بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى . ومن ذلك نرى أن السنة النبوية مكملة لأحكام الإسلام وملزمة

لجميع المسلمين على خلاف ما يهزو به بعض الجهلاء وعمى البصيرة من الاكتفاء بالقرآن وإهمال السنة .

ويقول العلماء كذلك : إن قوله تعالى (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول . . .) هو شرط فى سياق نكرة وكأنه تعالى يقول : ما من شىء تتنازعون فيه إلا وجدتم حكمه فى الكتاب والسنة فارجعوا إليهما فى كل شىء تتنازعون فيه لتعثروا على حل المشكلة (ذلك خير) أى ذلك الرجوع إلى الكتاب والسنة (وأحسن تأويلا) أى أحسن عاقبة أو أحسن تأويلا من تأويلكم بهوى نفوسكم .

أقول : وما أهأنأنا نحن المسلمين بدين الإسلام الذى تمت به سعادتنا فى الدنيا والآخرة ، وصدق سبحانه إذ يقول فى سورة المائدة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

وقد جاء فى تفسير الإمامين الجلالين رضى الله عنهما أن تلك الآية الكريمة نزلت بعرفة عام حجة الوداع وكان يوم الجمعة ، وجاء فى حاشية الإمام الجمل رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم عاش بعدها أحدا وثمانين يوما ، ولم ينزل بعدها آية إلا قوله تعالى فى سورة البقرة (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) .

وجاء فى التفسير (اليوم أكملت لكم دينكم) أى أحكامه وفرائضه فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام (وأتممت عليكم نعمتى) أى بإكمال الدين (ورضيت لكم الإسلام ديناً) أى اخترت .

وجاء فى تفسير الإمام إبي السعود رضى الله عنه : عن عمر بن الخطاب

رضى الله عنه أن رجلا من اليهود قال له : آية فى كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا . قال : أى آية ؟ قال (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليك نعمتى . . .) قال عمر رضى الله عنه : قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذى أنزلت فيه على النبى عليه الصلاة والسلام وهو قائم بعرفة يوم الجمعة . أشار رضى الله تعالى عنه إلى أن ذلك اليوم عيد لنا .

وجاء فى ذلك التفسير كذلك : وروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضى الله عنه . فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : ما يبكيك يا عمر ؟ قال : أبكاني أنا كنا فى زيادة من ديننا ، فإذا كمل فإنه لا يكمل شىء إلا نقص . فقال عليه الصلاة والسلام : صدقت ، فكانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما لبث بعد ذلك إلا أحدا وثمانين يوما . وقد أثبت الإمام القرطبى رضى الله عنه ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما : بعث النبى صلى الله عليه وسلم بشهادة ألا إله إلا الله . فلما صدقوه فيها زادهم الصلاة ، فلما صدقوه زادهم الزكاة ، فلما صدقوه زادهم الصيام ، فلما صدقوه زادهم الحج ، ثم أكمل لهم دينهم . ويتحدث مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنعمة القرآن الكريم فيقول : (ما من الأنبياء نبى إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) .

وينوه سبحانه بتكريم رسوله الأعظم فى إنزال القرآن المجيد إليه

صلى الله عليه وسلم ، فيقول جل جلاله فى سورة الشورى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم * وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) .

وقد جاء فى تفسير الإمام أبى السعود رضى الله عنه :

(وما كان لبشر) أى وما صح لفرد من أفراد البشر (أن يكلمه الله) أى بوجه من الوجوه (إلا وحيا) أى إلا أن يوحى إليه ويلهمه ويقذف فى قلبه ، كما أوحى إلى أم موسى عليها السلام وإلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى ذبح ولده ، وقد روى عن مجاهد : أوحى الله الزبور إلى داود عليه الصلاة والسلام فى صدره ؛ أو بأن يسمعه كلامه الذى يخلقه فى بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه ، وهو المراد بقوله (أو من وراء حجاب) وذلك كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام ، وكما يكلم الملائكة ، أو بأن يكلمه بواسطة ملك وذلك قوله (أو يرسل رسولا) أى ملكا (فيوحى) أى ذلك الرسول إلى المرسل إليه الذى هو الرسول البشرى (بإذنه) أى بأمره تعالى وتيسيره (ما يشاء) أن يوحيه إليه ، وهذا هو الذى يجرى بينه وبين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى عامة الأوقات من الكلام (إنه على) متعال عن صفات المخلوقين لا يتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلا بأحد الوجوه المذكورة (حكيم) يجرى أفعاله على سنن الحكمة ، فيكلم تارة بواسطة وأخرى بدونها إما إلهاما وإما خطابا .

(وكذلك) أى ومثل ذلك الإيحاء البديع (أوحينا إليك روحا من أمرنا) هو القرآن الذى هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياة أبدية ، وقيل هو جبريل عليه السلام ، ومعنى إيحاؤه إليه إرساله إليه بالوحي ، صلى الله عليه وسلم (ما كنت تدري) قبل الوحي (ما الكتاب) أى شىء هو (ولا الإيمان) أى الإيمان بتفاصيل ما فى تضاعيف الكتاب من الأمور التى لا تهتدى إليها العقول ، وليس الإيمان بما يستقل به العقل والنظر فإن درايتته عليه الصلاة والسلام مما لا ريب فيه قطعا .

(ولكن جعلناه) أى الروح الذى أوحيناه إليك (نورا نهدي به من نشاء) هدايته (من عبادنا) وهو الذى يصرف اختياره نحو الاهتداء به . وقوله تعالى (وإنك لتهدى) أى وإنك لتهدى بذلك النور من نشاء هدايته (إلى صراط مستقيم) هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام (صراط الله) بدل من الأول ، وإضافته إلى الاسم الجليل ثم وصفه بقوله تعالى (الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) لتفخيم شأنه ، وتقدير استقامته ، وتأکید وجوب سلوكه ، فإن كون جميع ما فى السموات والأرض من الموجودات له تعالى خلقا وملكا وتصرفا مما يوجب ذلك أتم الإيجاب (ألا إلى الله تصير الأمور) أى أمور ما فيهما قاطبة ، لا إلى غيره ففيه من الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم والتهديد للضالين عنه ما لا يخفى .

الصراط المستقيم والدين الخالص :

ويبين الله تعالى ما كرم به رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم من

هدايته إلى الصراط المستقيم والدين الخالص ، وذلك فى قوله سبحانه فى آخر سورة الأنعام (قل إننى هدانى ربهى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين * قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) .

وقد جاء فى تفسير الإمام أبى السعود رضى الله عنه :

(قل إننى هدانى ربهى) أمر رسوله أن يبين لهم ما هو عليه من الدين الحق الذى يدعون أنهم عليه وقد فارقوه بالكلية ، والتعرض لعنوان الربوية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لمزيد تشريفه ، أى قل لأولئك المفرقين أرشدنى ربهى بالوحى وبما نصب فى الآفاق والأنفس من الآيات التكوينية (إلى صراط مستقيم) موصل إلى الحق (دينا) بدل من (إلى صراط) فإن محله النصب كما فى قوله تعالى (ويهديك صراطا مستقيما) ، (قيما) مصدر نعت به مبالغة ، وقرئ (قيما) بتشديد الياء وهو أبلغ من المستقيم (ملة إبراهيم) بيان (لدينا) (حنيفا) حال من إبراهيم أى مائلا عن الأديان الباطلة (وما كان من المشركين) اعتراض مقرر لنزاهته عليه السلام عما عليه المفرقون لدينه ، صرح بذلك ردا على الذين يدعون أنهم على ملته عليه السلام من أهل مكة واليهود المشركين بقولهم : عزير ابن الله ، والنصارى المشركين بقولهم : المسيح ابن الله .

(قل إن صلاتى ونسكى) أعيد الأمر لما أن المأمور به متعلق

بفروع الشرائع وما سبق بأصولها أى عبادتى كلها ، وقيل وذبحى جمع بينه وبين الصلاة كما فى قوله تعالى (فصل لربك وانحر) وقيل المعنى صلاتى وحجى (ومحياى ومماتى) أى وما أنا عليه فى حياتى وما أكون عليه عند موتى من الإيمان والطاعة (لله رب العالمين لا شريك له) خالصة له لا أشرك فيها غيره (وبذلك) إشارة إلى الإخلاص وما فيه من معنى البعد ، لالشعار بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل أى بذلك الإخلاص (أمرت) لا بشيء غيره . وقوله تعالى (وأنا أول المسلمين) لبيان مسارعتة عليه الصلاة والسلام الى الامتثال بما أمر به ، وأن ما أمر به ليس من خصائصه عليه الصلاة والسلام ، بل الكل مأمورون به ، ويقتدى به عليه الصلاة والسلام من أسلم منهم (قل أغير الله أبغى ربا) آخر فأشركه فى العبادة (وهو رب كل شيء) والحال أن كل ما سواه مريبوب له مثلى ، فكيف يتصور أن يكون شريكا له فى المعبودية (ولا تكسب كل نفس إلا عليها) كانوا يقولون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم (ولا تزر وازرة وزر أخرى) رد على ذلك القول . ويقول سيدى الإمام القشيري عند الآية الكريمة (قل أغير الله أبغى ربا . . .) فى لطائف إشارته رضى الله عنه :

كيف أوتر عليه بدلا ، وإنى لا أجد عن حكمه حولا ، وكيف أقول بغير أو ضد أو شريك ، أو أقول بدونه معبود أو مقصود وإن لاحظت يمناة ما شهدت إلا ملكه ، وإن طالعت يسره ما عاينت إلا ملكه ، بل إنى إن نظرت يمناة شاهدت يمنه ، وإن نظرت يسرة وجدت نحوى يسره .

شرف الصراط المستقيم :

علم الله سبحانه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث بنعمة الصراط المستقيم التي حباه بها . فقال تعالى كما سمعتم (قل إننى هدانى ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) . ولطالما حدثنا كتاب الله الكريم عن الصراط المستقيم ، كما أنه سبحانه علمنا فى سورة الفاتحة أن ندعوه قائلين (اهدنا الصراط المستقيم) أى ثبتنا عليه حتى نلقاك به بيض الوجوه ، كما علمنا أن الصراط المستقيم هو صراط الذين أنعم عليهم سبحانه ، وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحين كما جاء ذلك صريحا فى قوله عز وجل فى سورة النساء (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) وهو وعد كريم من الله تعالى لأهل الطاعة من المؤمنين بأن يدخلهم جنات النعيم ليرافقوا فيها أتقى عباده وأرفعهم درجة وأشرفهم منزلة .

وقد ورد فى سبب نزول ذلك الوعد الكريم أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه يوما وقد تغير وجهه ونحل جسمه ، فسأله عن حاله ، فقال : ما بى من وجع ، غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرت الآخرة فخفت ألا أراك هناك ، لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين ، وإن أدخلت الجنة كنت فى منزل دون منزلك ، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدا ، فأنزل الله الآية الكريمة مبشرة لأهل الطاعة من المؤمنين الذين يحرصون

على طاعة الله ورسوله ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه لنسعد في الجنة مع كبار السعداء وعلى رأسهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هدانا الله على يده إلى الصراط المستقيم الذي جاء به ودعا إليه .

تسليّة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وقد كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على أن يسعد الناس كلهم بالصراط المستقيم الذي دعاهم إليه ، وكان يألم من اعراض المعرضين الذين لم يستجيبوا لدعوته . فسلاه الله تعالى بآيات كثيرة خفف بها عن نفسه ، فقال تعالى مثلا في سورة يوسف (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون * وما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين * وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا نكر للعالمين * وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون) .

وردت هذه الآيات الكريمة بعد أن قص الله قصة يوسف . عليه السلام . بتمامها ، وكان اليهود وقريش سألوا عنها مولانا رسول الله فأوحى الله إليه صلى الله عليه وسلم ما كان من أمرها ، وكان ما أوحى إليه مطابقا لما جاء في التوراة ، ولكنهم لم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (وما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين) وزاده تسليّة بما بعدها ، تخفيفا عنه وتهوينا عليه صلى الله عليه وسلم .

ومما سلاه الله تعالى به قوله سبحانه في سورة الكهف (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا * إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا * وإنا لجاعلون ما عليها

صعيدا جزا) . وفى تفسير الإمامين الجلالين رضى الله عنهما (باخع) أى مهلك (نفسك على آثارهم) بعدهم أى بعد توليهم عنك (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) أى القرآن (أسفا) أى غيظا حزنا منك ولحرصك على إيمانهم . وجاء فى حاشية الإمام الجمل رضى الله عنه : قوله تعالى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) القصد منه تسليته صلى الله عليه وسلم وتسكين أسفه وغيظه على عدم إيمانهم لأنه مختبر لأعمال العباد مجازيهم عليها ، فكأنه يقول له صلى الله عليه وسلم : لا تحزن فإنى منتقم منهم لك . وكذلك من تسلية الله له صلى الله عليه وسلم قوله تعالى فى سورة آل عمران (إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) .

وجاء فى تفسير الإمام البضاوى رضى الله عنه :

(وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) من اليهود والنصارى (إلا من بعد ما جاءهم العلم) أى بعد ما علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالآيات والحجج ((بغيا بينهم)) أى حسدا بينهم وطلبا للرياسة ، لا لشبهة وخفاء فى الأمر (ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب) وعيد لمن كفر منهم .

(فإن حاجوك) فى الدين أو جادلوك فيه بعد ما أقمت الحجج (فقل أسلمت وجهى لله) أخلصت نفسى ، وإنما عبر بالوجه عن النفس لأنه

أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والحواس (ومن اتبعن) عطف على التاء فى أسلمت .
 (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين) والأميين الذين لا كتاب لهم كمشركى العرب (أسلمتم)
 كما أسلمت وقد وضحت لكم الحجة أم أنتم بعد على كفركم (فإن أسلموا فقد اهتدوا) فقد
 نفعوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال (وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) أى فلم يضروك إذ ما
 عليك إلا أن تبلغ وقد بلغت (والله بصير بالعباد) وعد ووعد .

ومن آيات التسلية قوله تعالى فى سورة الأنعام (قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا
 يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا
 حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبر عليك
 إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتهم بآية ولو شاء
 الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين * إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى
 يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) .

وجاء فى تفسير الإمام ابن كثير رضى الله عنه :

يقول تعالى مسلما لنبية صلى الله عليه وسلم فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه (قد نعلم أنه
 ليحزنك الذى يقولون) أى قد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم كقوله (فلا
 تذهب نفسك عليهم حسرات) وقوله (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) .

(فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أى لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر
 (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أى ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم كما قال
 سفيان الثورى عن أبى إسحق عن ناجية بن كعب عن على قال : قال أبو جهل للنبي صلى
 الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله (فإنهم لا يكذبونك . . .)
 ورواه الحاكم ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

دفاع الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم :

فى كتاب الله الكريم آيات كثيرة يدافع بها سبحانه عن رسوله الأعظم غيره عليه وتكريما له
 صلى الله عليه وسلم فمثلا يقول سبحانه فى سورة المؤمنون (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما
 لم يأت باءهم الأولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون * أم يقولون به جنة بل جاءهم
 بالحق وأكثرهم للحق كارهون * ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن
 بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون * أم تسألهم خرجا فخارج ربك خير وهو خير
 الرازقين * وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم * وإن الذين لا يؤمنون عن الصراط لناكبون) .

وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه :

(أفلم يدبروا القول) أى القرآن ليعلموا أنه الحق من ربهم بإعجاز لفظه ووضوح مدلوله (أم
 جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) من الرسول

والكتاب (أم لم يعرفوا رسولهم) بالأمانة والصدق وحسن الخلق وكمال العلم مع عدم التعلم إلى غير ذلك (فهم له منكرون) دعواه لأحد هذه الوجوه إذ لا وجه له غيرها (أم يقولون به جنة) فلا يبالون بقوله وكانوا يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم أرجح عقلا وأدقهم نظرا (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم فلذلك أنكروه (ولو اتبع الحق أهواءهم) بأن كان فى الواقع آلهة شتى (لفسدت السموات والأرض ومن فىهن) لبطلتا (بل أتيناهم بذكرهم) بالكتاب الذى هو ذكرهم ، أى وعظهم أو وصيتهم ، أو الذكر الذى تمنوه بقولهم (لو أن عندنا ذكرا من الأولين * لكانا عباد الله المخلصين) ، (فهم عن ذكرهم معرضون) لا يلتفتون إليه (أم تسألهم خراجا) أجرا على أداء الرسالة (فخراج ربك) رزقه فى الدنيا وثوابه فى العقبى (خير) لسعته ودوامه ، فففيه مندوحة لك عن عطائهم (وهو خير الرازقين) تقرير لخيرية عطائه تعالى (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) تشهد العقول السليمة باستقامته .

وأضاف الإمام البيضاوى يقول رضى الله عنه : واعلم أنه سبحانه ألزمهم الحجة ، وأزاح العلة فى هذه الآيات بأن حصر ما يؤدي إلى الإنكار والاتهام وبين انتفاءها ما عدا كراهة الحق وقلة الفطنة (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط) عن الصراط السوى (لناكبون) لعادلون عنه ، فإن خوف الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوك طريقه .

الرسول الأعظم يعلم الأمة الكتاب والسنة :

يقول سبحانه في سورة آل عمران ممتنا على المؤمنين ببعثة سيد المرسلين إليهم صلى الله عليه وسلم (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) .

وقد جاء في تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه :

(لقد من الله على المؤمنين) أنعم على من آمن مع الرسول صلى الله عليه وسلم من قومه ، وتخصيصهم مع أن نعمة البعث عامة لزيادة انتفاعهم بها (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) من نسبهم أو من جنسهم عربيا مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ، ويكونوا واقفين على حاله فى الصدق والأمانة مفتخرين به ، وقرئ من أنفسهم (بفتح الفاء) أى من أشرفهم لأنه عليه الصلاة والسلام كان من أشرف قبائل العرب وبطونهم ، (يتلو عليهم آياته) أى القرآن بعد أن كانوا جهالا لم يسمعوا الوحي (ويزكيهم) يظهرهم من دنس الطباع وسؤ الاعتقاد والأعمال (ويعلمهم الكتاب والحكمة) أى القرآن والسنة (وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) والمعنى : أنهم كانوا من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم فى ضلال ظاهر .

وقد قلت فى هذا المقام فى كتابى الذى نشرته دار المعارف (رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم) :

فلولا أن الله تعالى أرسله لهدايتنا ما اهتدينا ، ولا تحلينا بسائر

مكارم الإسلام التي سعدنا بها في ديننا ودينانا . وقد زكى الله رسوله العظيم ، وهياها لحمل عبئه الكبير ، فحلاه بالعلم الذي لا يشوبه جهل ، وبالفضل الذي لا تشوبه نقيصة ، وجمع له بالعلم والخلق غرر الفضائل التي فاق بها الأولين والآخرين ، فنهل منها الناس على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ولغاتهم ما وسعهم أجمعين ، ولا تزال على حالها منهلا عذبا فراتا للواردين من أصحاب اليمين والسابقين المقربين . . .

وجعل الله من تعليم رسوله صلى الله عليه وسلم آية للمعتبرين ، فقال تعالى في سورة العنكبوت ردا على المتشككين (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون * وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) .

وقد بين الله تعالى في تلك الآيات المتقدمة أن رسوله صلى الله عليه وسلم لم يكن بين قومه قارئاً ولا كاتباً ، ولكنه تلا عليهم ما لم يقرأوا أو يكتبوا مثله ، فلا هو بالنثر البياني المعهود ، ولا هو الشعر الوجداني المعروف ، بل هو قرآن يفوق بيانه كل بيان ، ويهز عند سماعه أو تلاوته كل وجدان ، أحكت آياته ، وفصلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، لم تتردد الجن حين سمعوه أن يقولوا ما حكاه الله عنهم في سورة الجن (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد

فآمنا به ولن نشرك برينا أحدا) بل ولم يتردد كفار مكة حين سمعوه مع كفرهم به : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة . وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر .
وأما المؤمنون ، فما وسعهم إلا أن يقولوا ما قاله الراسخون في العلم وحكاه سبحانه في سورة آل عمران في قوله الكريم (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب * ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب * ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد) .
ويقول سيدي عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ . رضى الله عنه . في مزايا القرآن التى أعجزتهم عن تحديده ، كما جاء فى كتابه (دلائل الإعجاز) :
أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ، ومجارى ألفاظه ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام ، وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وبيان .
وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشر عشرا ، وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، أو لفظة ينكرها شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أخرى أو أخلق ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظاما والتثاما ، وإتقانا وإحكاما ، لم يدع فى نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع ،

حتى خرس الألسن أن تدعى وتقول ، وخذت القروم فلم تملك أن تصول .
وأكتفى بهذا القدر ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتابه (دلائل الإعجاز) الذى أشرت إليه آنفا .
وأود أن أبين لكم بعد ذلك أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتلقف آيات القرآن
الكريم من الوحي بلهفة شديدة تقديرا منه للكلام وتمجيذا للمتكلم . وأثبت الله تعالى ذلك له فى
مثل قوله تعالى فى سورة طه (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدنى
علما) وفى مثل قوله تعالى فى سورة القيامة (لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا
جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه) .

وقد جاء فى تفسير الإمام أبى السعود لسورة القيامة قوله رضى الله عنه :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقن الوحي نازع جبريل عليه السلام القراءة ، ولم
يصبر إلى أن يتمها مسارعة الحفظ ، وخوفا منه أن ينفلت منه ، فأمر عليه الصلاة والسلام
أن يستنصت له ملقيا إليه قلبه وسمعه حتى يقضى إليه الوحي ، ثم يقفيه بالدراسة إلى أن
يرسخ فيه .

(لا تحرك) أى بالقرآن (لسانك) عند إلقاء الوحي (لتعجل به) أى لتأخذه على عجلة
مخافة أن ينفلت منك (إن علينا جمعه) فى صدرك بحيث لا يذهب عليك شىء من معانيه (
وقرآنه) أى إثبات قراءته فى لسانك (فإذا قرأناه) أى أتمنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه
السلام (فاتبع قرآنه) فكن مقفيا له (ثم إن علينا بيانه) أى بيان ما أشكل عليك من معانيه
وأحكامه .

أمانة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وقد شهد الله تعالى بأمانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تبليغ ما أوحاه الله إليه من كتابه فقال تعالى فى سورة النجم مشيدا بأمانته (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى) فهو صلى الله عليه وسلم قد بلغ عن ربه ما أوحاه إليه ولم يبلغنا شيئا عن هواه وحاشاه . وما أروع ما يقول سيدى الإمام القشيري فى لطائف إشارته عند قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) حيث قال رضى الله عنه :

ومتى ينطق عن الهوى وهو فى محل النجوى ؟ فى الظاهر مزمووم بزمام التقوى ، وفى السرائر فى إيواء المولى ، مصطفى عن كدورات البشرية مرقى إلى شهود الأحذية ، مكاشف بجلال الصمدية ، متخطف عنه بالكلية ، لم تبق منه إلا للحق بالحق ببقية ، ومن كان بهذا النعت ، متى ينطق عن الهوى .

ويؤيد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فى أن القرآن منزل عليه من عند الله وذلك فى قوله سبحانه فى سورة العنكبوت (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون * وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون * وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا يعلم ما فى السموات والأرض

والذي آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) .

وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه :

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الشريفة على أمة لم يعرف بالقراءة والتعلم خارق للعادة (إذن لارتاب المبطلون) أى لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا لعله تعلم أو التقطه من كتب الأولين الأقدمين وإنما سماهم مبطلين لكفرهم .

(وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى (قل إنما الآيات عند الله) ينزلها كما يشاء لست أملكها فاتيكم بما تقترحونه (وإنما أنا نذير مبين) ليس من شأنى إلا الإنذار وإبانتة بما أعطيت من الآيات (أو لم يكفهم) آية مغنية عما اقترحوه (أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) تدوم تلاوته عليهم متحدين به فلا يزال معهم آية ثابتة لا تضحل بخلاف سائر الآيات . (إن فى ذلك) الكتاب الذى هو آية مستمرة وحجة مبينة (لرحمة) لنعمة عظيمة (وذكرى لقوم يؤمنون) وتذكرة لمن همه الإيمان دون التمتع .

(قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) بصدقى ، وقد صدقنى بالمعجزات أو بتبليغى ما أرسلت به إليكم ونصحى ومقابلتكم إياى بالتكذيب والتعننت (يعلم ما فى السموات) فلا يخفى عليه حالى وحالكم (والذين آمنوا بالباطل) وهو ما يعبد من دون الله (وكفروا بالله) منكم (أولئك هم الخاسرون) فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان .

المؤمنون هم أولوا الألباب :

وقد شرف الله تعالى المؤمنين الذين أطاعوا مولانا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فوصفهم بأولى الألباب أى العقول السليمة التى اهدت بحسن تفكيرها إلى الحق ، بينما وصف سبحانه الكافرين بالعمى . ولنقرأ فى ذلك مثلاً قوله تعالى فى سورة الرعد (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر ألو الألباب) . وبشرح لنا سلامة تفكيرهم واستمساكهم بدينهم بتضحيتهم فى سبيل الله وحسن ثوابهم فيقول تعالى فى سورة آل عمران (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذاب النار * ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتنا وما للظالمين من أنصار * ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ربنا فغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد * فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب) .

وفى قوله تعالى فى الآيات السابقة (ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا) إشارة إلى أنهم أطاعوا مولانا رسول الله

صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى الإيمان بربهم ، ولم يقفوا منه موقف أهل العناد من الكافرين الزائغين عن الهدى .

إيمان المؤمنين بما آمن به رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يقول سبحانه في شهادته بإيمان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه من المؤمنين في سورة البقرة (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) .

وجاء في حاشية الإمام الجمل رضى الله عنه : قوله تعالى (والمؤمنون) يجوز فيه وجهان : (١) أحدهما أنه مرفوع بالفاعلية عطفاً على الرسول ، فيكون الوقف عندها ، ويدل على صحة هذا ما قرأ به أمير المؤمنين على بن أبى طالب : وآمن المؤمنون ، فأظهر كرم الله وجهه الفعل . ويكون قوله تعالى (كل آمن) جملة من مبتدأ وخبر تدل على أن من تقدم ذكره آمن بما ذكر .

(ب) أن يكون (المؤمنون) مبتدأ و (كل) مبتدأ ثان و (آمن) خبر عن كل وهذا المبتدأ وخبره خبر عن الأول ، والتقدير (كل منهم آمن) فيكون التنوين فى (كل) راجعاً إلى الرسول والمؤمنين أى كلهم آمن ، وتوحيد الضمير فى آمن مع رجوعه إلى كل المؤمنين أريد به بيان كل فرد منهم . أما قوله تعالى (وقالوا سمعنا وأطعنا) فروعى فيه معنى الجماعة .

سعادة المؤمنين وشقاء الكافرين :

يسعد المؤمنون في دنياهم وأخراهم بعبادة الله الواحد الأحد كما أرشدهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويشقى الكافرون بمخالفة دعوته صلى الله عليه وسلم واتباع أهوائهم في عبادة غير الله . ويقول سبحانه في الفرق بين المؤمنين والكافرين في سورة القتال (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم * مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم * ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم * والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) . ومعنى غير آسن أى غير متغير كماء الدنيا ، والماء الحميم أى شديد الحرارة . وفى قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك . . .) إشارة إلى المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر وكانوا يحضرون خطبة الجمعة ، فإذا خرجوا من المسجد النبوى قالوا لعلماء الصحابة مثل ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما (ماذا قال آنفا) ويقصدون بسؤالهم هذا الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله تعالى (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) أى إنهم لما تركوا اتباع الحق أمات الله قلوبهم فلم تفهم ولم تعقل فعند ذلك اتبعوا أهواءهم فى الباطل . أما المؤمنون فقد انتفعوا بما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى فى

شأنهم (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) أى أعانهم على تقواهم . وأين من آمن فاتاه الله تقواه ممن كفر واتبع هواه ، (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) كما قال الله . وما أصدق ما يقول الله تعالى فى سورة النمل لرسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم (فتوكل على الله إنك على الحق المبين * إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) .

وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه ، (فتوكل على الله إنك على الحق المبين) صاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصره (إنك لا تسمع الموتى) تعليل آخر للأمر بالتوكل من حيث أنه يقطع طمعه عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأسا ، وإنما شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم كما شبهوا بالصم فى قوله (ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) فإن اسماعهم فى هذه الحالة أبعد (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) حيث الهداية لا تحصل إلا بالبصر (إن تسمع) أى ما يجدى إسماعك (إلا من يؤمن بآياتنا) من هو فى علم الله كذلك (فهم مسلمون) مخلصون .

ويكشف لنا سبحانه عن حال الكفار يوم القيامة فيقول تعالى فى سورة الفرقان (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا * ويوم يعرض الظالم على يديه ويقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جائنى وكان الشيطان للإنسان خذولا) .

وجاء فى تفسير الإمام ابن كثير رضى الله عنه : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله وهو الحق المبين الذى لا مرية فيه وسلك طريقا أخرى غير سبيل الرسول . فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعض على يديه حسرة وأسفا . وسواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى معيط أو غيره من الأثقياء فإنها عامة فى كل ظالم ، لأنه يندم يوم القيامة غاية الندم ويعض على يديه قائلا (ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا) يعنى به من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال ، وسواء فى ذلك أمية بن خلف أم أخوه أبى بن خلف أو غيرهما (وكان الشيطان للانسان خذولا) أى يخذله الشيطان عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله فى الباطل ويدعوه إليه .

وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه : والمراد بالظالم الجنس ، وقيل عقبة بن معيط ، كان يكثر مجالسة النبی صلى الله عليه وسلم ، فدعاه إلى ضيافته ، فأبى أن يأكل . صلى الله عليه وسلم . حتى ينطق عقبة بالشهادتين ففعل ، وكان أبى بن خلف صديقا لعقبة ، فعاتبه ، وقال : صبات ، فقال : لا ولكنه أبى أن يأكل طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له ، فقال : لا أرضى عنك حتى تأتية فنتأ قفاه وتبزق فى وجهه ، فأتاه فوجده ساجدا فى دار الندوة ، ففعل ذلك ، فقال له عليه الصلاة والسلام : لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فأسر يوم بدر ، فأمر عليا فقتله ، وطعن النبی أبيا بأحد فى المبارزة فرجع إلى مكة ومات .

وجاء فى حاشية الإمام الجمل رضى الله عنه : وحكم الآية عام فى كل

خليلين ومتحابين اجتماعا على معصية الله عز وجل . روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير . فحامل المسك إما أن يحذيك . أى يعطيك وإما أن تبتاع منه . أى تشتري . وإما أن تجد منه ريحا طيبا ؛ ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة .) .

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) أخرجه أبو داود والترمذى . ولهما عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي) .

الله تعالى يقسم بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم :

قال تعالى فى سورة الحجر مخاطبا رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) . وقد جاء فى تفسير الإمام ابن كثير رضى الله عنه : أقسم الله تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه وفى هذا تشرىف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض . والمعنى : وحياتك وعمرك وبقائك فى الدنيا (سكرتهم) أى ضلالتهم (يعمهون) أى يلعبون أو يترددون . وقد قال عمرو بن مالك الذكرى عن أبى الجوزاء عن ابن عباس أنه قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره . رواه ابن جرير .

تزكية الله تعالى للأمة المحمدية :

ويزكى الله تعالى أهل الإيمان فى الأمة المحمدية فيقول سبحانه

فى سورة البقرة (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه : (وسطا) أى جعلناكم خياراً أو عدولا مزكين بالعلم والعمل . والوسط فى الأصل اسم للمكان الذى تستوى إليه المساحة من الجوانب ، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفى إفراط وتفريط ، كالجود بين الإسراف والبخل ، والشجاعة بين التهور والجبن ، ثم أطلق على أن المتصف بها واستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، واستدل به على أن الإجماع حجة ، إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لا نثلتم به عدالتهم (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) أى جعلناكم خياراً وعدولا لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على أحد وما ظلم ، بل أوضح السبل وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا ، ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات والإعراض عن الآيات ، فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين من قبلكم أو بعدكم .

وأضاف الإمام البيضاوى يقول :

روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء ، فيطالبهم الله ببينة التبليغ ، وهو أعلم بهم ، إقامة للحجة على المنكرين ، فيؤتى بأمة محمد . عليه الصلاة والسلام . فيشهدون ، فتقول الأمم : من أين عرفتم ؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله تعالى فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق ، فيؤتى بمحمد . صلى الله عليه وسلم . فيسأل عن حال أمته

فيشهد بعدالتهم . وهذه الشهادة وإن كانت لهم ، لكن لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام كالرقيب المهيمن على أمته عدت الشهادة بعلى ، وقدمت الصلة . أى على هؤلاء . للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم .

أقول وبينما يشهد الرسل الكرام . عليهم صلوات الله وسلامه . يوم القيامة بكفر أممهم وقبح أعمالهم يشهد مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإيمان أمته وصدق شهادتهم ، وعندئذ تشتد حسرة الكافرين والعاصين ويودون أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتى . ويحكى ذلك قوله تعالى فى سورة النساء (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً) أى لا يقدر على الكتمان لأن جوارحهم تشهد عليهم عندما يختم الله على أفواههم . وعياداً بالله من ذلك .

تبشير الأمة المحمدية بفضل الله الكبير :

وقد امر الله تعالى أعظم رسله . صلى الله عليه وسلم . بأن يبشر المؤمنين من أمته بفضل الله الكبير . فقال تعالى فى سورة الأحزاب (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً) . وقد بشر صلى الله عليه وسلم من آمن وأنذر من كفر . وقال قولته المشهورة فى حجة الوداع : ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم فاشهد . وإنما يؤتى المؤمنون فضل الله بمتابعتهم لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وما يؤتية سبحانه من فضله للمؤمنين مما يسر مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن ما يسرهم يسره وهو بالمؤمنين روءف رحيم كما وصفه الله تعالى .

صاحب المقام المحمود . صلى الله عليه وسلم :

يقول سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم فى سورة الإسراء (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً * ومن الليل فتهدى به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) .

وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه : (لدلوك الشمس) أى لزوالها ، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام أتانى جبريل لدلوك الشمس من حين زالت فصلى بى الظهر (إلى غسق الليل) إلى ظلمته وهو صلاة العشاء الأخيرة . (وقرآن الفجر) وصلاة الصبح سميت قرآناً لأنه ركنها كما سميت ركوعاً وسجوداً ، واستدل به على وجوب القراءة فيها . (إن قرآن الفجر كان مشهوداً) تشهد ملائكة النهار ، والآية جامعة للصلوات الخمس . (ومن الليل فتهدى به) اترك الهجود . النوم . فى بعض الليل للصلاة ، والضمير فى (به) للقرآن . (نافلة لك) فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة ، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك . (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) يحمده القائم فيه وكل من عرفه ، وهو مطلق فى كل مقام يتضمن كرامة . وأضاف الإمام البيضاوى يقول : والمشهور انه مقام الشفاعة لما روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : (هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى)

وفى مقام الشفاعة يوم القيامة يقول أمير الشعراء شوقى رحمه الله فى همزيتة :
يا من له عز الشفاعة وحده و هو المنزه ماله شفعاء
عرش القيامة أنت تحت لوائه و الحوض أنت حياله السقاء
تسقى وتروى الصالحين جميعهم و الصالحات ذخائر و جزاء
لى فى مديحك يا رسول عرائس تيمن فيك و شقاهن جلاء
هن الحسان فإن قبلت تكرما فمهورهن شفاعة حسناء
صاحب الأولوية صلى الله عليه وسلم :

يقول سبحانه فى سورة الأحزاب (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) .
وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه : أولى بالمؤمنين من أنفسهم فى الأمور كلها ،
فإنه لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس ، فلذلك أطلق .
فيجب عليهم أن يكون النبى . صلى الله عليه وسلم . أحب إليهم من أنفسهم ، وأن يكون أمره
أنفذ عليهم من أمرها ، وشفقتهم عليه أتم من شفقتهم عليها . وروى أنه عليه الصلاة
والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج ؛ فقال ناس : نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت
الآية . وهو صلى الله عليه وسلم أب فى الدين للمسلمين ، فإن كل نبى أب لأمتة من حيث
أنه أصل فيما به الحياة الأبدية ، ولذلك صار المؤمنون أخوة .
حرمته الدائمة صلى الله عليه وسلم :

يقول سبحانه فى سورة الأحزاب (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا

بيوت النبي إلا إن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً * إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً) .

وفى ذلك القول الكريم تعظيم من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وغيره عليه ، وفيه كذلك إيجاب لحرمة حيا وميتا ولذلك بالغ سبحانه بالوعيد على من لم يحفظ حرمة فقال سبحانه (إن تبدوا شيئاً أو تخفوه) من التكلم فى فى زواجهن أو إخفائه فى صدوركم (فإن الله كان بكل شيء عليماً) فيعلم ما يكون منكم علانية أو سرا فيجازيكم به .

الأدب فى خطابه صلى الله عليه وسلم :

وأوجب الله تعالى على المؤمنين أن يراعوا حرمة فى خطابه صلى الله عليه وسلم . فقال تعالى فى سورة الحجرات (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبظ أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم * إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) .

والآية الأولى نهى الله فيها المؤمنين عن رفع أصواتهم والجهر بها استخفافاً به . وبينت الآية أن الاستخفاف به يؤدي إلى الكفر المحبط للثواب إذا قصد برفع الصوت الإهانة وعدم المبالاة . والآية الثانية أثنى الله بها على الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أجلالاً له وتعظيماً لقدره . ولنتأمل كيف أخلص الله قلوبهم للتقوى فراعوا حسن الأدب في خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تقديراً لمكانته عند الله تعالى فهو رسوله ومصطفاه والأدب معه أدب مع الله ، وطاعته طاعة لله ، ومخالفته مخالفة لله . وسبحان من كرمه واجتباه . والآية الثانية نزلت في وفد من بنى تميم جاءوه صلى الله عليه وسلم ، شافعين في أسرى بنى عنبر . وقد نفى الله العقل عن لم يراعوا الأدب معه صلى الله عليه وسلم ، حيث نادوه من وراء الحجرات وهو نائم في وقت القيلولة ، وكان الأولى بهم أن يصبروا حتى يخرج هو إليهم دون أن يستعجلوا خروجه .

انتظار قوله وفعله صلى الله عليه وسلم :

وإذا كانت الآية الثالثة السابقة قد علمت المؤمنين أدب خطابه صلى الله عليه وسلم فإن مطلع سورة الحجرات قد علمتهم إلا يسبقوه بقول أو فعل فقد قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) .

وجاء في حاشية الإمام الجمل رضى الله عنه أنه اختلف في سبب نزولها . فعن جابر أنه في الذبح يوم الأضحى قبل الصلاة أى لا تذبحوا قبل أن يذبح النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أن ناساً ذبحوا قبله صلى الله

عليه وسلم فأمرهم أن يعيدوا الذبح وقال : (من ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم عجله لأهله ليس من النسك فى شىء) . وعن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها أنه فى النهى عن صوم يوم الشك أى لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال الضحاك يعنى فى القتال وشرائع الدين أى لا تقطعوا أمرا دون الله ورسوله . وقال الإمام الرازى : والأصح أنه إرشاد عام يشمل الكل ، ومنع مطلق يدخل فيه كل افتيات وتقدم واستبداد بالأمر ، وإقدام على فعل غير ضرورى من غير مشاورة . وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه : وقيل المراد بقوله تعالى : (بين يدى الله ورسوله) المراد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الله تعظيما له وإشعاراً بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله .

إلزام المؤمنين باختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قد ألزم الله المؤمنين والمؤمنات بما يختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولهن . فقال تعالى فى سورة الأحزاب (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) .

وجاء فى تفسير الإمام أبى السعود رضى الله عنه : أى ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين إذا قضى الله ورسوله أمراً أى إذا أراد رسول الله أمراً ، وذكر الله لتعظيم أمره والإشعار بأن قضاءه قضاء الله تعالى . (أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أى أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تابعاً لرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وجمع الضميرين لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما فى سياق النفى ، فلما وقعا فى سياق النفى كانا بمعنى كل مؤمن ومؤمنة .

وجاء فى حاشية الإمام الجمل رضى الله عنه : والآية نزلت فى عبد الله بن جحش ، وأخته زينب بنت جحش ، وأمهما أمية بنت عبد المطلب عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان النبى صلى الله عليه وسلم خطبها لزيد بن حارثة ، فقالت : أنا بنت عمّتك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسى ، وكانت بيضاء جميلة وزيد أسود ، ولما نزلت الآية رضيته هى وأخوها فزوجها النبى صلى الله عليه وسلم لزيد .

فضل الله على أزواجه صلى الله عليه وسلم :

قال تعالى فى فضله على أزواج رسوله . صلى الله عليه وسلم . وهن سيداتنا أمهات المؤمنين . رضى الله عنهن . فى الأحزاب (يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً *) ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما * يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا * وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيرا * واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا) .

وجاء فى حاشية الإمام الجمل رضى الله عنه : تضعيف العقوبة على الذنب والمثوبة على الطاعة يدل على فضلهن . ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق . وإذا تقصينا جماعات النساء واحدة واحدة لم نجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والسابقة . وقال سيدنا عبد الله

ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى قوله تعالى : (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) يريد : ليس قدركن عندى كقدر غيركن من النساء الصالحات ، بل أنتن أكرم على وثوابكن أعظم لدى .

وجاء فى الحاشية كذلك أن سيدتنا أم المؤمنين سودة بنت زمعة قيل لها لما لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك . فقالت رضى الله عنها : قد حججت واعتمرت فأمرنى الله أن أقر فى بيتى . فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها رضوان الله عليها . وذكر الثعلبى وغيره أن سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كانت إذا قرأت هذه الآية (وقرن فى بيوتكن . . .) تبكى حتى يبتل خمارها .

أقول : وإنما كانت تبكى أسفا على خروجها إلى العراق حيث وقعت معركة الجمل . وأود أن أذكر لكم أنها لم تخرج إلا للإصلاح بين المؤمنين باعتبارها أما لهم جميعا ، ولكن شاء الله أن تقع حرب الجمل بلا ترتيب . وانتصر فى المعركة إمامنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ورد أم المؤمنين إلى المدينة معززة مكرمة ودعت له عند وصولها للمدينة المنورة .

وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى عند قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيرا) قوله رضى الله عنه : الرجس أى الذنب المدنس لعرضكن . وهذا تعليل لأمرهن ونهيهن للاستئفاف ، ولذلك عمم الحكم . وقوله : (أهل البيت) نصب على النداء أو المدح . (ويظهركم تطهيرا) أى يظهركم من المعاصى للتنفير منها . (ويظهركم)) أى من الرجس .

وجاء فى تفسير الإمام أبى السعود رضى الله عنه :

(واذكرن ما يتلى فى بيوتكن . . .) هذا تذكير بما أنعم الله به عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي . وشاهدن من حال الوحي ما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة ، والتعرض للتلاوة فى البيوت دون النزول فيها مع أنها الأنسب بكونها مهبط الوحي لعموم التلاوة جميع الآيات ووقوعها فى كل البيوت ، وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير ، بخلاف النزول وعدم تعيين التالى لتعم التلاوة تلاوة جبريل وتلاوة النبى . صلى الله عليه وسلم . وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما .

وجوب التسليم بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم :

نفى الله الإيمان على من لم يسلم بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى فى سورة النساء (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا فى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا * أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغا * وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيماً * فلا وربك لا يؤمنون

حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) .
وقد جاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن منافقا خاصم يهوديا فدعاه اليهودى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحكم لليهودى ، فلم يرض المنافق بقضائه ، وقال : نتحاكم إلى عمر . فقال اليهودى لعمر : قضى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه وخاصم إليك . فقال عمر رضى الله عنه للمنافق : أكذلك ؟ فقال : نعم ، فقال : مكانكما حتى أخرج إليكما . فدخل فأخذ سيفه ، ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد (أى مات) وقال : هكذا أفضى ما لم يرض بقضاء الله ورسوله ، فنزلت ، وقال جبريل : إن عمر قد فرق بين الحق والباطل فسمى الفاروق . والطاغوت على هذا كعب بن الأشرف وفى معناه من يحكم بالباطل ويؤثر لأجله ، سمى بذلك لفرط طغيانه أو لتشبهه بالشيطان ، أو لأن التحاكم إليه تحاكم للشيطان من حيث أنه الحامل عليه كما قال تعالى : (وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً) .

(فكيف إذا أصابتهم مصيبة) كقتل عمر للمنافق (بما قدمت أيديهم) من التحاكم إلى غيرك وعدم الرضى بحكمك (ثم جاءوك) حين يصابون للاعتذار . (إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين ولم نرد مخالفتك . (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) . من النفاق (ولو أنهم إذ ظلموا

أنفسهم) بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت (جاءوك) تائبين من ذلك (فاستغفروا الله) بالتوبة والإخلاص (واستغفر لهم الرسول) واعتذروا إليك حتى انتصبت لهم شفيعا . وإنما عدل عن الخطاب تفخيما لشأنه . صلى الله عليه وسلم . وتنبيها على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له ، ومن منصبه أن يشفع في كبائر الذنوب . (لوجدوا الله توابا رحيمًا) لعلموه قابلا لتوبتهم متفضلا عليهم بالرحمة .

(فلا وربك) أى فوربك ، ولا مزيدة لتأكد القسم ، (حتى يحكموك فيما شجر بينهم) فيما اختلف بينهم واختلط (ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت) ضيقا مما حكمت به (ويسلموا تسليما) وينقادوا لك انقيادا بظاهرهم وباطنهم .

ويقول سيدى الإمام القشيري ، عند هذه الآية الأخيرة فى لطائف إشارته رضى الله عنه : سد . سبحانه . الطريق . إلى نفسه . على الكافة إلا بعد الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . فمن لم يمش تحت رايته فليس له من الله نفس ؛ ثم جعل من شرط الإيمان زوال المعارضات بالكلية بقلبك .

الرحمة المهداة :

بين الله تعالى أن الرسالة المحمدية . على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم . كانت رسالة رحمة للمؤمنين والكافرين من الإنس والجن . فقال سبحانه فى سورة الأنبياء مخاطبا له صلى الله عليه وسلم : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . أما المؤمنون فقد نالتهم بركة دعوته

فسعدوا باتباعه فى دينهم وديناهم . وأما الكافرون فكانت رحمته فى تأجيل عذابهم فلم يعاقبهم الله فى دنياهم بالخسف والنسف كما فعل بكفار الأمم السابقة ، بل أجل عذابهم إلى يوم القيامة . وصدق مولانا رسول الله إذ يقول صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة .

موقف النبيين من مولانا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين :

قال تعالى فى سورة آل عمران (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلك إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأن معكم من الشاهدين) .

وقد جاء فى حاشية الإمام الجمل رضى الله عنه : قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : ما بعث الله نبيا آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأخذ هو العهد على قومه ليؤمنن به ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه . وجاء فى الحاشية كذلك أن معنى هذا أن الله أخذ الميثاق على النبيين وعلى أممهم جميعا فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، فاكتفى بذكر الأنبياء لأن العهد مع المتبوع عهد مع الأتباع وهو قول ابن عباس .

أقول : وإذا كان هذا مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين إخوانه من النبيين والمرسلين جميعا فلا عجب أن يحشرهم الله تعالى ويقدمه عليهم بأمره سيدنا جبريل عليه السلام ليلة الإسراء ليصلى بهم إماما فى المسجد الأقصى ببيت المقدس قبل أن يعرج به إلى السموات العلى وما فوقهن . وفى ذلك يقول أمير الشعراء شوقى رحمه الله فى نهج البردة :

أسرى الله بك ليلا إذ ملائكه
و الرسل فى المسجد الأقصى على قدم
لما خطرت بهم التفوا بسيدهم
كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم
صلى وراءك منهم كل ذى خطر
و من يفز بحبيب الله يأتمم

وجاء فى تفسير الإمام ابن كثير رضى الله عنه : وفى بعض الأحاديث (لو كان موسى
وعيسى حين لما وسعهما إلا اتباعى) . وأضاف الإمام ابن كثير قائلا : فهو صلى الله عليه
وسلم الرسول الأعظم الذى لو وجد فى أى عصر لكان هو الواجب للطاعة المقدم على
الأنبياء كلهم . ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس . وكذلك هو الشفيع
فى المحشر . وهو صاحب المقام المحمود الذى لا يليق إلا له والذى يحيد عنه أولو العزم من
الأنبياء والمرسلين حتى تنتهى النبوة إليه فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه
عليه .

النبى . صلى الله عليه وسلم . فى كمال عبوديته لله تعالى :

أثبت الله تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كمال عبوديته لله عز وجل فى قوله
الكريم فى مطلع سورة الإسراء (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) .
وما أروع ما يقول سيدى الإمام القشيري فى لطائف إشارته حيث قال :
افتتح السورة بالثناء على نفسه فقال : (سبحان الذى . . .) الحق سبح نفسه بعزير خطابه
، وأخبر عن استحقاقه لجلال قدره ، وعن توحده بعلو نعوته .
ولما أراد أن يعرف العباد ما خص به رسوله . صلى الله عليه وسلم .

ليلة المعراج من علو ما رقاہ إليه ، وعظم ما لقاہ به أزال الأعجوبة بقوله (أسرى) . ونفى عن نبيه خطر الإعجاب بقوله (بعده) لأن من عرف ألوهيته ، واستحقاقه لكمال العز فلا يتعجب منه أن يفعل ما يفعل ، ومن عرف عبودية نفسه وأنه لا يملك شيئاً من أمره ، فلا يعجب بحاله .

وأضاف سيدي الإمام القشيري يقول رضى الله عنه :

فآلية أوضحت شيئين اثنين : نفي التعجب من إظهار فعل الله عز وجل ، ونفى الإعجاب فى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقال : لما كان تعبه صلى الله عليه وسلم وتهجده بالليل جعل الحق سبحانه المعراج بالليل .
ويقال :

ليلة الوصل أصفى من شهور ودهور سواها

ويقال : أرسله الحق سبحانه ليتعلم أهل الأرض منه العبادة ، ثم رقاہ إلى السماء ليتعلم الملائكة منه آداب العبادة . قال تعالى فى وصفه صلى الله عليه وسلم ((ما زاغ البصر وما طغى)) فما التفت يمينا ولا شمالا ، وما طمع فى مقام ولا إكرام ، تجرد عن كل طلب وأرب .
ويقال : من الآيات التى أراها له تلك الليلة أنه ليس كمثل سبانه شىء فى جلاله وجماله ، وعزه وكبريائه ، ومجده وسنائه .

ثم أراه من آيات تلك الليلة ما عرف به . صلوات الله وسلامه عليه . أنه ليس أحد من الخلائق مثله فى نبوته ورسالته وعلو حالته وجلال رتبته .

أقول وفى هذه المناسبة أود أن أذكر لكم قليلا من الكثير الذى تكلم به سادتنا الصوفية عن العبودية . فقد قال سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه : العبودية أن تكون عبده فى كل حال كما أنه ربك فى كل حال . ويقول سيدى أبو على الدقاق رضى الله عنه : أنت عبد من أنت فى رقه وأسره . فإن كنت فى أسر نفسك فأنت عبد نفسك ، وإن كنت فى أسر دنياك فأنت عبد دنياك . كما يقول رضى الله عنه : سمعت النصر اباذى يقول : قيمة العابد بمعبوده ، كما أن شرف العارف بمعروفه . وقال سيدى أبو حفص رضى الله عنه : العبودية زينة العبد ، فمن تركها تعطل من الزينة . ويقول سيدى ابن عطاء رضى الله عنه : العبودية أربع خصال : الوفاء بالعهود ، وحفظ الحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر عن المفقود .

وأختم ما أنقله إليكم من كلامهم بقول سيدى أبى على الدقاق رضى الله عنه : ليس شىء أشرف من العبودية ، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية . ولذلك قال سبحانه فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج . وكان أشرف أوقاته فى الدنيا . (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) . وقال تعالى : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) فلو كان أسم أجل من العبودية لسماه به .

تحقيق الله تعالى لرغبات رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يقول الله تعالى فى سورة البقرة (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنت فولوا وجوهكم وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من

ربهم وما الله بغافل عما يعملون) .

وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه :

روى أنه عليه الصلاة والسلام قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ، ثم وجه إلى الكعبة فى رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين . وقد صلى بأصحابه فى مسجد بنى سلمة ركعتين من الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وتبادل الرجال والنساء صفوفهم فسمى المسجد مسجد القبلتين .

(قد نرى تقلب وجهك فى السماء) أى تردد وجهك فى جهة السماء تطلعا للوحى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع فى روعه ويتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم ، وأقدم القبلتين ، وأدعى للعرب إلى الإيمان ، ولمخالفة اليهود ، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل (فلنولينك) فلنمكنك من استقبالها (ترضاها) تحبها وتتشوق إليها لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله وحكمته (فول وجهك) اصرف وجهك (شطر المسجد الحرام) نحوه ، وإنما ذكر المسجد دون الكعبة لأنه عليه الصلاة والسلام كان بالمدينة . والبعيد يكفيه مراعاة الجهة ؛ لأن استقبال عين الكعبة فيه حرج عليه بخلاف القريب . أى القريب الذى يراها رأى العين ويسهل عليه استقبالها .

فلنتأمل فى قوله تعالى : (فلنولينك قبلة ترضاها) ولنتذكر فى تأملنا ما قالته سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يسارع فى هواك . وهذا قول حق من أئمة الأئمة التى نطقت بكلمتها هذه عن علم وعن تجربة فى عشرتها له .

أقول : وكيف لا يسارع الله سبحانه فى هواه صلى الله عليه وسلم وهو الذى اختاره واصطفاه لأعظم الرسالات وأعمها وأبقاها ، وأحاطه طول حياته برعايته السامية جل وعلا ؛ وقال له فى سورة الطور (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) ؛ وقال له فى سورة الضحى (والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فاؤمى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى) .

وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه : (والضحى) وقت ارتفاع الشمس (والليل إذا سجى) سكن أهله (ما ودعك ربك) ما قطعك قطع المودع (وما قلى) ما أبغضك . وروى أن الوحي تأخر عنه أياماً فقال المشركون إن محمداً ودع ربه وقلاه فنزلت رداً عليهم (وللآخرة خير لك من الأولى) فإنها باقية خالصة من الشوائب ، وهذه . الدنيا . فانية مشوبة بالمضار ؛ كأنه لما بين سبحانه وتعالى أنه ما زال يواصله بالوحي والكرامة فى الدنيا ، وعده بما هو أعلى وأجل من ذلك فى الآخرة ، أو لنهاية أمرك خير من بدايته ، فإنه صلى الله عليه وسلم لا يزال يتصاعد فى الرفعة والكمال (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وعد شامل لما أعطاه من كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين ولما ادخر له مما لا يعرف كهنه سواه سبحانه (ألم يجدك يتيماً فاؤمى) تعدد لما أنعم عليه تنبيهاً على أنه كما أحسن إليه فيما مضى يحسن إليه فيما يستقبل وإن تأخر (ووجدك ضالاً) عن علم الحكم والأحكام (فهدى) فعلمك بالوحي والإلهام والتوفيق للنظر .

وقال تعالى فى سورة الشرح (ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك

وزرك * الذى أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك) .

وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه :

(ألم نشرح لك صدرك) ألم نفسحه حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق فكان غائباً حاضراً . (ووضعنا عنك وزرك) عبئك الثقيل (الذى أنقض ظهرك) الذى حمله على النقيض وهو صوت الرجل عند الانتقاض من ثقل الحمل (ورفعنا لك ذكرك) بالنسوة وغيرها . وأى رفع مثل أن قرن اسمه باسمه تعالى فى كلمتى الشهادة . أى لا إله إلا الله محمد رسول الله . وجعل طاعته طاعته ، وصلى عليه فى ملائكته ، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه ، وخاطبه بالألقاب .

أقول : أى لم يخاطبه باسمه كما كان يخاطب إخوانه من النبيين بأسمائهم فلم يقل له يا محمد بل قال : (يا أيها الرسول) ، (يا أيها النبى) ، (يا أيها المزمّل) ، (يا أيها المدثر) . وأمر سبحانه المؤمنين ألا يخاطبوه باسمه أو كنيته ، فقال تعالى فى سورة النور (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) . فأوجب سبحانه أن نوقره بقولنا : يا نبى الله ، يا رسول الله ، وكانت الأمم قبلنا تخاطب المرسلين بأسمائهم كقولهم مثلاً فى سورة هود (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) وقولهم فى ذات السورة (يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول) وقولهم فى سورة الأعراف (يا موسى ادع لنا ربك . . .) .

وفى قوله تعالى : (ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك) يقول سيدى الإمام القشيرى فى لطائف إشارته رضى الله عنه :

عصمناك عن ارتكاب الوزر ، فوضعه عنه بأنه لم يستوجه قط .

ويقال : خفضنا عنك أعباء النبوة ، وجعلناك محمولا لا متحملا . (الذى أنقض ظهرك) أى أثقله ، ولولا حملنا عنك لكسر . (ورفعنا لك ذكرك) فكما لا تصح كلمة الشهادة إلا بى فإنها لا تصح إلا بك .

أدب الاجتماع برسول الله صلى الله عليه وسلم :

يكشف الله تعالى لنا عن أدب ساداتنا الصحابة الكرام فى اجتماعهم بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيقول جل جلاله فى سورة النور (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم) .

وقد جاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه :

(إنما المؤمنون) أى الكاملون فى الإيمان (الذين آمنوا بالله ورسوله) من صميم قلوبهم (وإذا كانوا معه على أمر جامع) كالجمعة والأعياد والحروب والمشاورة فى الأمور (لم يذهبوا حتى يستأذنه) يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأذن لهم ، والاستئذان مميّز للمخلص فى الإيمان عن المنافق فإن ديدن المنافق التسلل والفرار . وفى ذلك تعظيم للجرم فى الذهاب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذنه ، ولذلك أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ فقال : (إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) فإنه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة وأن الذهاب بغير إذن ليس كذلك . (فإن استأذنوك لبعض شأنهم) ما يعرض لهم من المهام وفيه أيضا مبالغة وتضييق للأمر . (فأذن لمن شئت منهم) تفويض الأمر إلى رأى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكأن المعنى فأذن لمن علمت أن له عذرا (واستغفر لهم الله بعد الإذن ، فإن الاستئذان ولو لعذر قصور لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين) إن الله غفور) لفرط العباد (رحيم) بالتيشير عليهم .

وجوب الصلاة والتسليم على النبي صلى الله عليه وسلم :

أوجب الله تعالى على المؤمنين أن يصلوا ويسلموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى فى سورة الأحزاب (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه :

والآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه فى الجملة ، وقيل تجب الصلاة عليه كلما جرى ذكره لقوله عليه الصلاة والسلام : (رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على) وقوله : (من ذكرت عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده الله) وأضاف الإمام البيضاوى يقول : وتجوز الصلاة على غيره تبعا ، وتكره استقلالا ؛ لأنه فى العرف صار شعاراً لذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كره أن يقال : محمد عز وجل ، وإن كان عزيزاً وجليلاً (أى لأن التحية بقولنا عز وجل صارت عرفاً لله تعالى فلا نحى بها غيره) .

وخالصة ما قرأته للعلماء فى تعقيبهم على تلك الآية الكريمة :

(إن الله وملائكته يصلون على النبي) هذه جملة اسمية تدل على دوام الصلاة عليه من الله تعالى ومن الملائكة . والصلاة من الله تعالى

عليه معناها زيادة فضله وفيضه عليه ، فهو . صلى الله عليه وسلم . فى ازيداد دائم من فضل الله عليه . أما الصلاة عليه من الملائكة فمعناها طلب المزيد له من عطاء الله تعالى . أما الصلاة عليه من المؤمنين فمعناها سؤالهم الله تعالى أن يكافئه . صلى الله عليه وسلم . عنهم لعجزهم عن مكافئته بأنفسهم عما نالوه على يديه . صلى الله عليه وسلم . من الهدى والإيمان ، وما شرفهم الله ببركته من ميراث القرآن ، وما تعلموه بالسنة النبوية من التفصيل والبيان ، وما تأسوا به من أخلاق رسول الله الحسان ، وما يرحمهم الله به من شفاعته يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وقد جاء فى حاشية الإمام الجمل رضى الله عنه : فإن قيل إذا صلى الله وملائكته عليه ، فأى حاجة به إلى صلاتنا ؟ أجيب بأن الصلاة عليه ليس لحاجته إليها ، وإلا فلا حاجة له إلى صلاة الملائكة أيضا . وإنما القصد بها تعظيمه ، وعود فائدتها علينا بالثواب والقرب منه صلى الله عليه وسلم .

ويسرنى فى هذا المقام أن أنقل إليكم ما قاله سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى فضل الصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم فقد قال وما أروع قوله : الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم أمحق للذنوب من الماء البارد للنار ، والسلام عليه أفضل من عتق الرقاب ، وحب النبى صلى الله عليه وسلم أفضل من ضرب السيف فى سبيل الله .

هذا ولا أنسى أنى كنت أتلو القرآن الكريم منذ سنوات مضت ، وكان يجلس إلى جوارى رجل أعرابى من البادية لا أعرفه . فسمعنى وأنا أتلو الآية الكريمة (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) فسألنى بلغة البدو : يا حاج ،

هادى فى القرآن ؟ وكرر الآية على مسمى كلمة كلمة كما قرأتها ، فقلت له : نعم ، وقربت إليه المصحف الشريف ليراها بنفسه ويقراها . فأدهشنى قوله : أنا لا أعرف القراءة ، مع أنه حفظها كما سمعها مرة واحدة . وزادت دهشتى حين أخذ فى التعقيب عليها قائلا فى تدبر عجيب وهو يكرر كلماتها فى تودة وتأمل : (إن الله وملائكته يصلون على النبى) ما شاء الله على عطاء الله لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . فسألته عن عمله ، فقال : زارع ، فسألته عن بلده ، فقال : زهران . وسبحان من يسر القرآن للذكر حتى للأميين الذين لا يقرءون ولا يكتبون .

وجاء فى حاشية الإمام الجمل نقلا عن تفسير الإمام القرطبى رضى الله عنهما : هذه الآية شرف الله بها رسوله . صلى الله عليه وسلم . فى حياته وموته، وأظهر بها منزلته عنده . أقول : وإنما إذا تأملنا فى أساس عقيدتنا نراها قامت على شطرين : الأول هو : لا إله إلا الله ، والثانى هو : محمد رسول الله . وشاء الله تعالى أن يزيدنا ارتباطا بالشرط الأول فأمرنا سبحانه أن نذكر الله ذكرا كثيرا ؛ فقال تعالى فى سورة الأحزاب (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا) . وشاء سبحانه أن يزيدنا ارتباطا بالشرط الثانى فقال تعالى فى السورة ذاتها (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

وقد كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على جميع أحيانه . وقد قال : (تنام عينى ولا ينام قلبى) وكيف لا يذكر الله على

جميع أحيانه وهو القائل صلى الله عليه وسلم : (من أحب شيئاً أكثر من ذكره) ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم أعظم المحبوبين والمحبين عند الله تعالى وأكثرهم لله ذكراً . وكذلك كان رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يصلى على نفسه امتثالاً لأمر ربه . وهو الذى علمنا التشهد فى صلاتنا وعلماً كيفية الصلاة والسلام عليه فى التشهد . وأضاف فى التشهد آله إليه فى الصلاة عليه بأمر الله ، وعند إمامنا الشافعى تبطل صلاة من لم يصل على آل رسول الله فى التشهد ، فيجب أن يقول المصلى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . . . الخ .

ويلفتنا سيدى محيى الدين بن عربى إلى سر التشبيه فى قولنا (كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم) فيقول رضى الله عنه : آل محمد ليس فيهم نبيون ومرسلون كآل إبراهيم . فمعنى قولنا فى التشهد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، أى اللهم صل على محمد من حيث ما له آل كما صليت على إبراهيم من حيث ما له آل . وحيث أن آل محمد ليس فيهم نبيون ومرسلون كآل إبراهيم لأنك ختمت النبوات والرسالات به صلى الله عليه وسلم ، فصل على آل محمد كصلاتك على النبيين والمرسلين من آل إبراهيم . ويضيف قائلاً رضى الله عنه : فلو كشف لك يا ولى عما سيكون لآل بيت النبى من المكانة عند الله يوم القيامة لتمنيت أن تكون فى هذه الدنيا عبداً من عبيدهم ومولى من مواليتهم . رضى الله عنهم أجمعين .

واكتفى بهذا القدر ولعلى أحاضركم مرة ثانية فى آيات أخرى من آيات التكريم ، وصلوات الله وسلامه على مولانا رسول الله أبد الأبدین.وأشكرکم لحسن استماعكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حسن كامل الملطاوى .